بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سأل أحد الإخوة عن ذكر بعض العلماء فائدةً تتعلق بكتاب "تعريف أهل التقديس بمن وُصف بالتدليس" للحافظ ابن حجر رحمه الله، قال فيها:

(إن الكتاب منه نسخة بخط أحد تلاميذه، في مكتبة تركية كُتِب عليها: "رجع المصنف عن هذا الكتاب").

ففَهِمَ بعضُ طلبة العلم، أن كتاب "تعريف أهل التقديس" الذي بين أيدينا كتابٌ تراجع عنه الحافظ، وأن هناك كتابًا آخر غيرَه هو المعتمد في هذا الباب.

وأيَّد بعضهم ذلك بأن الحافظ السخاوي رحمه الله قال في "الجواهر والدرر" (٢/ ٦٧٩) عند كلامه على كتاب "التعريف": (فرَّغَهُ في سنة ٨١٥، وكان جَمَعَهُ أولًا، ثم رجع عنه إلى كتاب أكبر منه بقليل).

والجواب عن ذلك:

أولا: النسخة المشار إليها هي نسخة مكتبة كوبرلي رقم (١٦٢٩)، وقد كتب الناسخ في طرف صفحة العنوان الأيمن: (هذا الكتاب في المدلسين رجع عنه مؤلفه، وجعل كتابا أكبر منه بقليل فليصحح).

فبيَّن الناسخ أن هذا الكتاب الذي قام بنسخه، قد تراجع عنه مؤلفه، وأنه جعل كتابا أكبر منه بقليل.

وهذا الكلام صحيح، بالنسبة للنسخة التي كتبها هذا الناسخ، فهي النسخة القديمة للكتاب، وقد زاد الحافظ عليها زيادات عديدة لا توجد فيها.

فعلى سبيل المثال: الموجود في هذه النسخة في المرتبة الأولى من مراتب التدليس (١٩) ترجمة، بينما الموجود في النسخ المتأخرة منه: (٣٣) ترجمة.

ولضبط ذلك فإن الحافظ رحمه الله في النسخ المتأخرة من الكتاب يُعنوِنُ بعدد تراجم كل مرتبة، فنجده يقول:

المرتبة الأولى وعدتهم ثلاث وثلاثون نفسا، والثانية كذلك، والثالثة: وعدتهم خمسون نفسًا، والرابعة: اثنتا عشرة نفسًا، والخامسة: وعدتهم أربع وعشرون نفسًا.

وقد خلت النسخة المذكورة من هذا الحصر، ونقصتْ جدًا في العدد.

ثانيا: يتبين مما سبق أن الحافظ رحمه الله كتب كتابه "تعريف أهل التقديس" مرتين، الأولى في سنة ٨١٥هـ، والثانية أعاد النظر فيه، فزاد فيه زيادات عديدة، فخرج الكتاب في صورة جديدة أخرى، فلذلك نبَّه تلامذته على عدم اعتماد النسخة القديمة لتراجعه عنها، ولذلك قال الحافظ السخاوي: (وكان جَمَعَهُ أولًا، ثم رجع عنه إلى كتاب أكبر منه بقليل).

فليس المقصود أنه تراجع إلى كتاب آخر باسم آخر، وإنما يَعني تراجعَه عن الإبرازة القديمة، وأنه أمر بالاعتماد على النسخة المحررة المزيدة.

ويدل على ذلك ما جاء في آخر نسخة دار الكتب المصرية وناسخها أحد تلاميذ الحافظ أيضا – ولم يذكر اسمه في آخرها – وقد نُسِخَتْ سنة ٨٦٧هـ :

(قال مؤلفه فسح في مدته، علقتُ هذه النبذة في شهور سنة خمسة عشرة وثمانمائة، وعلقها عني بعض الطلبة سنة ست عشرة، ثم زدتُ فيها بعد ذلك أسماء مختصرة انتهى.

قال الناسخ: وعلقتُ جميع ذلك يوم الثلاثاء رابع عشر ذي الحجة الحرام أحد شهور سنة سبع وستين وثمانمائة، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما كثيرا).

فقول الحافظ: (ثم زدتُ فيها بعد ذلك أسماء مختصرة)، هذا هو الذي وصفه الحافظ السخاوي بقوله: (رجع عنه إلى كتاب أكبر منه بقليل).

ثالثا: يدل – بصورة قاطعة – على ما سبق: من أن الأمر يتعلق بإبرازتين للكتاب: أولى وأخيرة ـ : أن تلميذًا آخر للحافظ، هو محمد بن أبي بكر السعدي ، قام بنسخ النسخة الأخيرة من كتاب "التعريف" فرغ منها في الخامس والعشرين من شهر شوال سنة (٨٥٢).

أي قبل وفاة الحافظ رحمه الله تعالى بأقل من شهرين، فإنه توفي في الثامن عشر من شهر ذي الحجة من السنة نفسها.

وقام الحافظ رحمه الله بكتابة عنوان النسخة بخط يده، حتى إن الناسخ كان فرِحًا جدا بهذا التوثيق اللطيف من الحافظ، فكتب في حاشية آخر الكتاب:

(وشَرُفَ الكتاب بخط مصنفه سيدنا ومولانا شهاب الملة والدين أحمد بن علي بن حجر). ينظر: مجموع في مكتبة كوبرلي رقم (١٥٩١).

فهذه النسخة مكتوبة قبل وفاة المؤلف بشهرين، واعتمدها بكتابة عنوان الكتاب بخطه: (تعريف أهل التقديس بمن وُصِف بالتدليس)، وقد جاءت متوافقة في عدد التراجم مع النسخ المطبوعة المتداولة.

فيتبين مما سبق أنه ليس هناك كتابان للحافظ أحدهما "تعريف أهل التقديس" تراجع عنه، وآخر مفقود، وإنما قام الحافظ رحمه الله بمراجعة كتابه وتعديله والإضافة عليه، فلذلك كان يُنبِّه الآخذين عنه على عدم مراجعة النسخة القديمة، و اعتماد النسخة الأخيرة منه.

رابعا: من المعلوم أن اجتهاد الحافظ ابن حجر رحمه الله في مراتب المدلسين قد تغير في بعض كتبه عما ذكره في "تعريف أهل التقديس"، فقد ذكر الأعمش في المرتبة الثانية في "التعريف"، وذكره في الثالثة في كتابه "النكت" (٢/ ٦٤٠).

وهي اختلافات في الاجتهاد يسيرة، لا تعني وجودَ كتاب آخر للحافظ غيرِ هذا الكتاب المعروف لدى المتخصصين.

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه: عبدالباري بن حماد الأنصاري ليلة الجمعة ١٤٤٠/٤/٢٨هـ